

الفصل السابع

إعادة كتابة التاريخ

هناك بواعث مُلحّة على إعادة كتابة التاريخ الإسلامى حتى القرن الخامس عشر للهجرة يتعاون فيها جملة من العلماء الثقات والمحققين المهرة ...

إن المآخذ كثيرة على السرد التاريخى الشائع بيننا ، وهى مآخذ تجعل هذا التاريخ لا يخدم الشخصية الإسلامية ، ولا يحقق المنافع المرجوة منه تربويا وسياسيا ..
وأول ما نلاحظه أنه - من ناحية الكمّ - ناقص ، فالمسلمون خمس العالم تقريبا ، وقد دخلت فى دين الله أجناس شتى ، فعرب الترك والفرس والأكراد ، والهنود والزنج ، وأجيال من الصين والمغول والأندوسيين والماليزيين ، وهى أجناس تنتشر بين المحيط الهادى والهندى والأطلسى ..

ثم هناك جماعات غفيرة فى طول أوروبا وعرضها ، وأخرى فى الأمريكتين !
والتاريخ الذى يدرس هو لجماعة محدودة من المسلمين تسكن ما يسمى الآن الشرق الأوسط ، يهتم فيه العرب بأنفسهم وحدها !

وإذا اتسعت هذه الدراسة قليلا تناولت ما يمت إليهم بسبب قريب ، أما إخوة العقيدة المنتشرون فى المشارق والمغرب فإن الحديث عنهم من الفضول ، وربما لا يقع لهم ذكر عن غفلة أو عن عمد ..

ومع نجاح الغزو الثقافى فى تمزيق أوصال الإسلام وتشتيت أمته ، أمسى المسلم فى مصر مثلا لا يدرى أو لا يكثر بمواقع لإخوانه المؤمنين بعيدا عن أرضه ...

وقد رأيت البانيا - وأكثر من تسعة أعشارها مسلمون - يفتريها الإلحاد ولا يسمع لشكاياتها أحد ..

ورأيت المسلمين في الفلبين - وعددهم أكثر من بضع دول عربية - تستهلكهم الفتن ولا يهب لنجدتهم أحد ...

وعندما سقطت راية الخلافة عن أدرنة لم يبكيها إلا شوقي الشاعر :

يا أخت أندلس عليك سلام ! هوت الخلافة عنك والإسلام !

مثل مابكي المتنبي أبا شجاع فاتكا ، أو مثل مابكي ابن الرومي ابنه !!
الفجيعة لاتزيد عن ذلك !!

لقد أضحى أمر الأمة فرطاً ، وأضحى تناصرهم المكتوب حلماً ، ويكذب التاريخ الآن كتابة طائشة ، لاتمثل الإسلام لامكانا ولازمانا ولاحقيقة ..

وأذكر أني اشتبكت في جدال حاد مع أحد السفراء الذي أنكر عليّ وصنى لصالح الدين الأيوبي بأنه كردى !

إنه مسكين يريد تكذيب الواقع التاريخي ! وضحكت وأنا أذكر وصفاً آخر للسلطان « قطز » قاهر التتار ، فقد افتتح مسجده في مصر على أنه من قادة القومية العربية !!

على العرب الذين حملوا راية الإسلام أن يدركوا أن العروبة ليست دماً . وإنما هي لسان ، وأن الولاء ليس لأنسابهم ، وإنما هو للدين الجامع ، وأن التاريخ الإسلامي إذا بدأ بالجزيرة حيث هبط الوحي - فإن دائرته تمتد مع خطوط الطول والعرض إلى ما شاء الله ، وأنه مع اندياح هذه الدائرة تذوب عصبية كثيرة فلا يبقى التفاف إلا حول الوحي ، ولا تبقى راية إلا راية التوحيد ..

ومن ثم فنحن لا نقبل تاريخاً للإسلام وأمتة يتجاهل هذه الحقائق ..

وإذا كان التاريخ الشائع الآن منقوصاً من ناحية « الكم » فهو منقوص كذلك من ناحية « الكيف » ! ولا يزال التلامذة في المدارس يقرؤون أن بغداد عاصمة الخلافة العباسية سقطت في أيدي التتار وحدهم ، وأن هذا الجنس الفوضوى أغار على قاعدة الإسلام بدوافعه الخاصة .

وما يدرسه التلاميذ غلط كبير ، والأوروبيون يدرسون ما وقع في دار الإسلام على أنه غارة مغولية صليبية ، قام فيها التتار بالدور الذى تقرر عليهم ، وقام الصليبيون بدور مماثل ...

وقد كان رسل الكنيسة الغربية ناشطين داخل دولة الخلافة وحولها والمسلمون نيام !

ومعروف أن القائد العام التتارى كان نصرانيا ، وأن زوجة هولاء كانت نصرانية .. وأن الأقليات الدينية كانت تشعر بما وراء الأكمة ، وقد تحركت عند اقتحام التتار المدينة المنكوبة ، وسجل ابن كثير في البداية والنهاية شحاتها وفرحتها ، وكان رحمه الله لا يدرى السبب !!

في عصرنا الحاضر يؤخر نشر الوثائق العسكرية والسياسية سنين تبلغ الثلاثين ، ثم تزداد ولا يبقى سر !! فما الذى يجعل تاريخنا باقيا على قصوره سبعة قرون ؟ ندرسه للطلاب على نحو غير صحيح ؟

لقد قرأت عن فضل الحملة الفرنسية على مصر ! وقرأت عن فضل الاحتلال الانكليزى لمصر ! ورأيت صحائف ملأى بالزور عن حقب شتى ... وأحسب أنه لا بد من إعادة كتابة التاريخ على نحو سليم ، نبدأ كتابة ما تجاوزناه ، ونعيد تصحيح ما غلطنا فيه ...

وما خلا قرن من شاهد صدق ! وماتغيب الحقيقة عن باحثين عنها ! المهم أن نستدرك مافاتنا ، وأن نستنقذ الحقائق من الأتربة التى أهملت فوقها ، وألا ندع المبطلين يفرضون علينا أغراضهم السيئة .. إن آثار التاريخ فى صناعة الأجيال المقبلة لا يمكن إنكارها ، فهل نترك تراثنا وأبناءنا للخراصين والحقادين ؟؟

المؤرخ المسلم يجب أن يعرف طبيعة الإسلام ووظيفة الدولة التى تقوم باسمه .. إن وظيفتها أكبر من توفير الطعام للجُمهور أو العمل على رفع مستوى المعيشة ...

إن لها رسالة أكبر من ذلك وأسمى ! يجب أن تحمى الإسلام من أعداء

يتربصون به ، وأن تزيج العواتق من طريق دعوته فلا تصادَر ولا يقف مسيرتها
الفتانون ...

كأن للناس ثارا عند حملة التوحيد ، فهم لا يفتنون بطلبونا به ! أو كما
وصف الكتاب الصادق : « وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِن
أَسْتَظْهُمُوا »^(١).

فهل وعى ذلك الحكام المسلمون ؟ أم أن كثيرا منهم اتخذ الحكم مغنا وأخذ إلى
الأرض ؟

على المؤرخ المسلم أن يحدّد موقف كل حاكم من واجبات دينه ، وهل أحسن
إعداد الأمة لحمل رسالتها أم لا ؟

ومعروف أنه وراء كل هزيمة فادحة أخطاء خفية أو جلية فشت في الأمة ،
وأذهبت ربحها ، فهل بحثت هذه الأخطاء ، وتمّ التنبيه إليها والتحذير منها ؟ أم
سجلت أخبار المد والجزر والهزيمة والنصر كما تسجل وكالات الأنباء خبرا عن
عارضة أزياء أو مباراة شطرنج !!

ليس هولاكو وحده :

كتب الدكتور أحمد صبحي منصور هذا الفصل النفيس في النقد الذاتي
للتاريخ الإسلامي ، نقله عنه مقدرين للفكر الذكيّ الذي أملاه .

« من بين عشرات السفاحين الذين أهلكوا الحرث والنسل يتمتع « هولاكو »
بمكانة خاصة في تاريخنا الإسلامي والعربي ، فهو السفاح الذي أطاح بالدولة
العباسية ، والذي قتل في بغداد سنة ٦٥٦ هـ ما يقرب من ٢ مليون نسمة .

إنه سجل دموى يستحق عليه هولاكو - بلا شك - كراهيتنا واحتقارنا ،
ولكن المسئولية لا يتحملها هولاكو وحده .. !

اللوم ينبغي أولا أن يوجه إلى أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي ، الذي
حمل أمانة المسلمين ففرط فيها ، والذي مازال بعضنا يذرف الدموع حزنا عليه ،

(١) سورة البقرة: ٢١٧ .

وعلى الخلافة العباسية التي تمثل حتى الآن حلما من أحلام اليقظة لدى بعض الناس في عصرنا ...

وقد وصفه المؤرخ ابن طباطبا بقوله : « كان مستضعف الرأي ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بالملكة ، مطموعا فيه ، وكان زمانه ينقضى في سماع الأغاني والتفرج على المساخر .. وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم جهال من أراذل العوام » .

وقد يقال : إن المؤرخ ابن طباطبا كان شيعي المذهب ، يتحامل على الخليفة المستعصم المشهور بتعصبه لأهل السنة ، إلا أن مؤرخا سنيا موثوقا فيه مثل ابن كثير يتفق مع ابن طباطبا في رأيه يقول عنه : « كان مجبا لجمع المال ، ومن ذلك أنه استحلّ الوديعه التي استودعها إياه الناصر داود المعظم ، وكانت قيمتها نحو من مائة ألف دينار ، فاستقبح هذا من مثل الخليفة »

وأدى نهم الخليفة بالمال وحرصه عليه إلى أن عرض الخلافة للخطر حين هددها المغول ، إذ إنه قطع عن الجنود أرزاقهم في وقت هو أحوج ما يكون إليهم فيه .

يقول ابن كثير إنه : « صرف الجيوش ، ومنع عنهم أرزاقهم حتى كانوا يتسولون على أبواب المساجد وفي الأسواق ... وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله » .

على أن شُحَّ الخليفة المستعصم بالأموال على الجند في وقت حاجته لهم يقابله في الناحية الأخرى إسرافه الشديد في الإنفاق على خدمه وأتباعه من الظلمة الذين يأكلون أموال الناس ، وكان أولئك الخدم من الجهال وأراذل العامة والمماليك الذين سعد بهم الزمن الرديء ، في عصر انحلال الدولة العباسية ، فاحتكروا الثروة بينما عاش العلماء والأشراف يتضورون جوعا .

ولنضرب أمثلة تاريخية على ماجرى في أواخر الدولة العباسية ، حين أُغدقت الأموال على الخدم فأصبحوا أعجوبة في الثراء ، ومنهم :

١ - علاء الدين الطبرسي الظاهري ، كان دخله من أملاكه نحو ٣٠٠ ألف

دينار ، وكانت له دار لم يكن ببغداد مثلها ، وحين تزوج دفع صداقا قدره ٢٠ ألف دينار .. وهب له الخليفة المستنصر ليلة زفافه ١٠٠ ألف دينار ، وألحقه بأكابر الدولة ، ومنحه صنيعه كانت تدرّ له دخلا يزيد على ٢٠٠ ألف دينار سنويا .

٢ - مجاهد الدويدار ، قيل عن أملاكه : إنها كانت « مما يتعذر ضبطه على الحساب » ... وفي ليلة زفافه حصل على هدايا من الجواهر والذهب ما يزيد على ٣٠٠ ألف دينار وفي صباح زواجه أنعم عليه الخليفة المستعصم بـ ٣٠٠ ألف دينار ، وكان إيراده السنوي من مزارعه وأملاكه أكثر من ٥٠٠ ألف دينار .

٣ - عبد الغنى بن فاخر ، شيخ الفراشين في قصر الخلافة ، كانت داره تشمل عدة حجرات ، وفي كل حجرة جارية وخادمة وخادم ، ثم رتب لكل جارية عملا ، فواحدة لطعامه ، وأخرى لشرابه ، وأخرى لفراشه ، وأخرى غسله ، وأخرى طبخة ، ...

وفي المقابل كان أعظم العلماء وقتها لا يتقاضى أحدهم أكثر من ١٢ دينارا شهريا فحسب !! وذلك هو المرتب الذى كان يأخذه علماء المدرسة المستنصرية !!

وابن القوطى وابن الساعى أشهر مؤرخى هذا العصر كان كلاهما يأخذ راتبا شهريا قدره عشرة دنانير !! فأين أولئك من شيخ الفراشين في قصر الخليفة !! وفى ذلك الوضع المقلوب لابد أن تكتمل الصورة المقيتة لأى امبراطورية على وشك السقوط بغض النظر عن الالافته التى ترفعها ، سواء كانت امبراطورية فارسية ، أو بيزنطية أو رومانية أو عباسية ، لابد أن تنفسى الرشوة ، وتكثر مصادرة الأموال ، وتتفاقم الاضطرابات الداخلية ، مع الانحلال الخلقى ، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذى يدق الأبواب .

يقول الغسانى صاحب كتاب «العسجد المسبوك» ، يصف السلطة العباسية فى أواخر أيامها : « واهتموا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح

الكلية ، واشتغلوا بما لا يجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال - أى الحكام - ، واشتغلوا بتحصيل الأموال . والملك قد يدوم مع الكفر ، ولكن لا يدوم مع الظلم .

صدقت يا غسانى : الملك قد يدوم مع الكفر لكن لا يدوم مع الظلم .. .
فالقاعدة الإلهية تقول: « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا »^(١) ، ولا يمكن أن يحل التدمير إلا إذا استشرى الظلم « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ »^(٢).

ولكن أمير المؤمنين المستعصم العباسى لم يستوعب الدرس ، ولم يعرف أن عقوبة الفساد مستمرة ، وإن تنوعت أساليبها ..
وقد رأى الخليفة المستعصم بنفسه طرفا من ذلك قبل أن يقتله المغول رفسا بأقدامهم !! ..

يقول الهمذاني فى كتابه : « جامع التواريخ » إن هولاءكو بعد أن اقتحم بغداد ، دخل قصر الخلافة ، وأشار بإحضار الخليفة المستعصم وقال له : « أنت مضيف ونحن الضيوف .. فهيا أحضر ما يلىق بنا .. فأحضر الخليفة وهو يرتعد من الخوف صناديق المجوهرات والنفائس ، فلم يلتفت إليها هولاءكو ، ومنحها للحاضرين ، وقال للخليفة : إن الأموال التى تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهى ملك لعبيدنا ، لكن اذكر ماتملكه من الدفائن ، ماهى وأين توجد ؟ » .
فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر ، فحفروا الأرض حتى وجدوه ، كان مليئا بالذهب الأحمر ، وكان كله سبائك ، ترن الواحدة مائة مثقال .

واستحق الخليفة احتقار هولاءكو السفاح الدموى ، إذ تعجب هولاءكو ، كيف يكون للخليفة كل هذه الكنوز ثم يبخل على الجنود بأرزاقهم !!
ولم ينس هولاءكو أن يذكر ذلك فى منشوره الذى أرسله إلى حاكم دمشق ،

(١) سورة الإسراء: ١٦ .

(٢) سورة هود: ١١٧ .

ينذره بالتسليم ، ويخوفه من مصير الخليفة العباسي وما حدث لبغداد ، ويقول فيه عن الخليفة المستعصم : « واستحضرنا خليفتها وأسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم ، واستوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيصة ، فجمع المال ولم يعبأ بالرجال .. »

وقد أورد المقرئى خطاب هولاء بالتفصيل ...

ونعود إلى الهمداني وهو يروى ذلك اللقاء بين هولاء والخليفة في قصر الخلافة فيقول : « إن هولاء أمر بإحصاء نساء الخليفة ، فبلغن سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة !! »

وتضرع له الخليفة قائلاً : « من عليّ بأهل حرمي اللاتي لم تطلع عليهن الشمس والقمر .. »

يقول الهمداني : « وقصارى القول ، إن كل ما كان الخلفاء العباسيون قد جمعوه خلال خمسة قرون ، وضعه المغول بعضه على بعض فكان كجبل على جبل .. »

وبسبب ذلك الكم الهائل من الكنوز التي ورثها هولاء من الخليفة العباسي ، فإنه صهرها جميعاً في سبائك وأقام لها قلعة محكمة في أذربيجان . لقد كان هولاء - ذلك الهمجى السفاح - يعي تماماً أنه عقاب إلهي للخلافة العباسية والحكام الظلمة في المنطقة ، وحرص على إبراز هذا المعنى في رسائله إلى الحكام ، يقول في رسالته إلى حاكم دمشق : « إنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسرنا سكانها .. »

ويقول في رسالته إلى السلطان قطز في مصر : « .. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها .. أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطاناً على من حل به غضبه .. فإنكم « أكلتم الحرام ، ولا تعفون عن كلام ، وختمت العهود والإيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، وقد ثبت عندكم أنا نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة .. »

وربما استفاد السلطان قظر من هذه الرسالة ، فكفّ المالك عن الظلم ، واستعاد شعوره الديني ..

وفي غمرة عين جالوت ، حين أوشك جنوده على الفرار صرخ « وا إسلاماه » وألقى بنجذته ، ونزل للمعركة بنفسه .. فكان الانتصار ..

هكذا تقوم الدول وتنهار ، وأساس الانهيار يبدأ من الداخل ، وقد يأتي تدخل خارجي ليعجل بالسقوط ولكن يظل الانهيار الداخلي هو بداية النهاية وعاملها الأكبر ..

ويأتي الانهيار الداخلي حين تتكون طبقة مترفة تتحكم في الثروة ، وفي الجماهير ، فتنشر الظلم والانهلال وتحيل حياة الأكثرية إلى جحيم تهون فيه الحياة ، وتتضاءل فيه الفوارق بين الحياة والموت .

والقرآن الكريم يضع العلاج في تشريعاته الاقتصادية التي تمنع تركيز المال في يد فئة واحدة .

ويأمر في الوقت نفسه بالزكاة والإنفاق في سبيل الله ، بل يأتي الأمر أحيانا في صورة التهديد كقوله تعالى : « وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ »^(١).

ومعناه أنه إذا لم يكن هناك إنفاق في سبيل الله فالتهلكة هي المقابل ، وإذا كان هناك إنفاق في سبيل الله فلا مجال إذن لتركز المال في طبقة قليلة العدد يتحول ثراؤها إلى ترف ..

ويقول تعالى مهديا المسلمين في عصر الرسول : « هَذَا نَسَمُهُ هُوَ لِأَنَّ تَدْعُونَ لِيُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ »^(٢).

لقد أساء المستعصم في تعامله مع خدمه وأتباعه ، فأغدق عليهم في المناسبات

(١) سورة البقرة: ١٩٥.

(٢) سورة محمد: ٣٨.

بمئات الألوف من الدنانير ، في وقت يتصوّر فيه العلماء والشرفاء جوعا ..
أبعد هذا نذل نلعن هولاء وحده !!؟

حساب من هذا؟

لقد شكوت في بعض كتبي من أنه لم ينعقد عندنا مجمع ولا مؤتمر يتساءل : لماذا
أذن الله بطرد العرب من الأندلس؟ لماذا دمر زلزال الحروب الصليبية بيت المقدس في
القرن الخامس ، ومن قبل ومن بعد دمر حواضر زاهرة ، وأخرس منائرنا؟
في فوضى التعليم الديني عندنا تتقدم قضية : هل لمس المرأة ينقض الوضوء على
قضية : هل الشورى تلزم الحاكم أم لا !!؟
وهذه انتكاسة عقلية ، وخلقية لا يقبل فيها عزاء !

وقد تأملت في أسباب سجن ابن تيمية فوجدته متها برفض الطلاق البدعي ،
وإسقاط القضاء عن ترك صلاة عمدا .. وغير ذلك من قضايا فرعية ! هل هذا
مربط الفرس في التربية الدينية؟ وهل المؤرخ المسلم يقف ساكنا أمام هذه النقائص
المذهلة؟

إن العالم يحثّ خطاه نحو مستقبل تستبحر فيه المعارف الكونية ، وتتنافس فيه الملل
والنحل على تطويع كل القوى لخدمتها ، وإذا بقي العقل الإسلامي سجين هذا القصور
فلا يلوم المسلمون إلا أنفسهم ، إذا فاتهم القطار ، وباعوا بخسار الدنيا والآخرة !
إن التاريخ هو الوالد الذي يقص تجاربه على أبنائه ليضمن لهم مستقبلهم ، فليكن
الوالد حكيمًا ذكيا ، حتى تجدى عظته ...

والحكم في الإسلام عبادة رفيعة الثواب ، والحكام العدول أول ظافر بالرضوان
الأعلى ، وأول مستظل بعرش الرحمن يوم الحر والزحام !
لكن هذا النوع - في تاريخنا - قليل ! لأن الرياسة شهوة عند كثيرين يسعون
لتحقيقها بالعرق والدم ! فإذا ظفروا بمجدهم الشخصي حافظوا عليه بالنفس

والنفيس ، وأظن هؤلاء هم الذين عنتم الآية : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ »^(١).

والقلة الصالحة من الحكام هي التي أجدت على الإسلام ، ووسعت رقعته في العالمين . وطلبة أولئك الساسة الكبار الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهناك ملوك ورؤساء على امتداد تاريخنا كله ابتدلوا أنفسهم لله وللأمة ، وذهبوا إلى الله راضين مرضيين . !

وحياة الإسلام الكبار لم يلقوا الترجمة الصحيحة لأعمالهم ، بل تناثرت هنا وهناك دون ضابط !

وأحيانا أرمى ما كتب عن دولة الخلافة ، فأجد إبرازاً للسلبات وإخفاء للمحامد والأجساد ، وكأنما كان التأريخ للفتن وحدها !!

أجل ! ما كان حقه أن يوضع في الهامش كتب بالثلث ، وجعل عنوانا ، ومُنْحَ الصدارة ! أما الخير الكثير لسلفنا الأول فكأنما وُضِعَتْ فوقه حجب ..

عندما كنت أقرأ أبناء المسلمين في أذربيجان ، وهم يقاومون الضغط الروسي ، ويحاولون النجاة بدينهم ، ذكرت أن هذه البقاع تم فتحها أيام الخليفة الثالث ، هي وأقطار أخرى يتكوّن منها جنوب الاتحاد السوفيتي !

إن تلامذتنا لا يعرفون هذا ، ولا رسمت لهم خريطة تجلوا أمامهم هذه الأعماء ! الذي دُرِّس لهم بعض الأكاذيب المفتراة على عثمان !! ومحاباته لنفر من عشيرته ! كان المفروض في تدريس رسالة ضخمة أن تذكر المبادئ والتطبيقات التي نهض بها جيل الصحابة الأوائل ، وغيرَ بها وجه الأرض !

وخرج بها العرب من أكوام الجاهلية الأولى يحملون كتابا أشرقت به الظلمات ، ونشأت عنه حضارة ازدانت بها الأرض ألف سنة ...

لقد كان ذلك عمل الخلفاء الأربعة الكبار ...

(١) سورة القصص: ٨٣.

إن معرفة هذا العمل بتفصيل أجدى - في ميدان السياسة والتربية - من حديث
الجميل وصفين وبقية السليبات التي رسبت في الأذهان ، واختنى غيرها مما كان يجب
أن يشرح ويخلد !!

لا أريد إنكار أخطائنا ، وإنما أريد ألا تعدو وضعها الثانوى بعد بيان ما أدينا
للدين والدنيا !

لحساب مَنْ يتم هذا الغمط !؟

محنة بيت المقدس :

كانت المحنة الأولى لبيت المقدس أوائل القرن الخامس الهجرى ، وظلت نحو
تسعين سنة ، حتى حرر المدينة المنكوبة صلاح الدين ، وغسل الأرض من أدران
الوحوش الذين استباحوها ، واقترفوا فيها مآسى تقشعرها الجلود !

لكن يظهر أن التطهير الذى قام به الحاكم المسلم لم يكن كاملا ! فإن
الصليبيين القدامى استجلبوا أعدادا كثيفة من إخوانهم آثرت البقاء على الأرض
الإسلامية ظافرة بجرية العقيدة ، مستريحة إلى مانالت من أمان !
وفى ظنى أن هذا لون من الاستعمار الاستيطاني خطير العواقب ، لأنه يتربص
بالمسلمين النواذب حتى إذا اكفهر الأفق كشف عن سخائمه !

ولذلك عندما سقطت بغداد تحرك هؤلاء حركة غادرة تستحق الدراسة .
يقول الذهبي فى كتابه : « دول الإسلام » عن أحداث سنة ٦٥٨ أى بعد
ستين اثنتين من سقوط الخلافة العباسية : « وشمخت النصارى بدمشق ، ورفعوا
الصليب فى البلد ، وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت !! ونقضوا العهد ،
وذلك فى الثانى والعشرين من رمضان ، وصاحوا ظهر الدين الصحيح دين
المسيح !

ثم وصلت العساكر المصرية إلى الشام ، وقصدتهم عساكر هولاءكو يقودهم

«كتبتغا» - وهو مسيحي - ووقع الاشتباك في عين جالوت ، فنصر الله دينه
وانهزمت التتار ، وقتل قائدهم !
وجاء الخبر إلى دمشق في الليل ، فوقع القتل والنهب في النصارى ، وأحرق
كنيستهم العظمى ...»

إننى برغمى أقصّ هذه الأنباء المؤسفة ، لكن ماذا أصنع وأنا أرى جيش
لبنان الجنوى يحرس مستعمرات اليهود ، وأتذكر مصارع العرب المدحورين في
مخيمى « صبرا وشاتيلا » وهم يقتلون ركلا بالأقدام من أبناء الصليبيين القدامى ،
الذين لم يرحموا هزائمهم وتشردهم ونكباتهم المتتابعة ...

ثم تجيء في هذا العصر أحداث لبنان ، ويقدم الرؤساء العرب اتفاق الطائف
على أساس أن يرأس الدولة مسيحي عربى يتعاون المسلمون معه تعاونا شريفا !
وهيات أن يقع الصلح ! المطلوب نظام سياسى يتعاون مع إسرائيل على محو
العروبة والإسلام ، ويتسع به الجرح في كيان الأمة التى دوختها الفتوق والخزوق !
مأساة الحاضر صورة من مأساة الماضى ، فهل من رجل يصرخ :

وا إسلاماه ... ليستبقى في كياننا الحياة ؟

إن محمدا عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين ، وما كان الإسلام نزعة قومية
ولاتفوقا جنسيا ، ولكن الذى وقع أن الرومان كانوا يحكمون الشمال الإفريقى كله ،
كما كانوا يحكمون الأناضول والشام وشمال الجزيرة العربية ...

وقد حرر الإسلام هذه الأقطار كلها ، ووضع عنها قيود الاستبداد الرومانى ،
فنظر الروم إلى الإسلام نظرة اللص إلى الشرطى الذى جرده من غنائمه ، وقلم
أظافره ، وألزمه حدود الأدب !

ولم يكن الرومان نصارى مخلصين ، بل إن جبروتهم وطغيانهم يجعلانهم أبعد
الناس عن عيسى بن مريم !

وقد تربصوا وراء حدودهم مكتفين بحروب محدودة حتى سنحت لهم الفرصة
قبيل القرن الخامس الهجرى ، فقاموا بغارات رهيبية اشتركت فيها أوروبا كلها ،

وعقدوا اتفاقاً مع المغول ليهجموا على شرق العالم الإسلامى ، بعد أن اقتحم الصليبيون غربه ، ودارت رحى الحرب نحو ثلاثة قرون ، هلك فيها من عباد الله من هلك ، ودُمّر من البلاد مدمراً !

وشاء الله أن يتراجع السيل الحقود ، فحرر المسلمون كل شبر من أرضهم ، ثم تولى قيادة المسلمين الأتراك العثمانيون ، فأسقطوا عاصمة الروم ، وبلغوا فى زحفهم « فيينا » .

وبقيت الحروب مستعرة قرونا أخرى ، ثم انهزم الأتراك لأسباب لا مجال لذكرها ، وكانت هزيمة مهينة شعاء سقط العالم الإسلامى كله على إثرها سقوطا لا بد من شرحه .

فإن روسيا وحدها استولت على جنوب المحيط المتجمد الشمالى حتى المحيط الهادى إلى أطراف الهند والصين ، أى ضعف مساحتها عدة مرات ، وبذلك ضاعت سيبيريا والتركستان ومنغوليا والأورال والقرم حتى شواطئ البحر الأسود ! وسقط الشمال الإفريقى ووادى النيل ، ووسط القارة السوداء فى يد الإنجليز والفرنسيين ، ومضت هاتان الدولتان ومعها هولندا . فاستولوا جميعا على الهند ، والهند الصينية ، وأندونيسيا وجزر الفلبين ، وسائر الجزر الواقعة فى المحيط الهندى ...

ومما يلفت النظر أن الانكليز لما أسقطوا دولة الإسلام فى الهند سلموا السلطة للهندوك على أساس أن الوثنية أولى بالبقاء من الإسلام ! وهو الرأى الذى شهد اليهود به لما سئلوا قديما : هل الوثنية أفضل من دين محمد؟ فقالوا لعباد الأصنام : دينكم أفضل !

ونزل قوله تعالى تعقيبا على هذه الفتوى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا » (١) !

(١) سورة النساء : ٥١ .

إن العالم الإسلامي اليوم ممزق ماديا ومعنويا ، وكتابة تاريخه تحتاج إلى جماعة أولى عزم شديد ، فهل يجود الزمان بهؤلاء ؟
ويجب أن نضم إلى مصادرنا التاريخية الموروثة المالدي غيرنا من مصادر تشرح وجهة نظره وتوضح موقفه منا ، إننا - إن فعلنا - واجدون مايفضح السرائر ، ويكشف الخبايا ، ويحدد موقف غيرنا منا ، وهو موقف لم يحاولوا تغطيته يوما من الأيام .

ملف الغرب والإسلام :

أوربا وأمريكا تكرهان الإسلام ، ما قصرت إحداهما في هضم قضاياه وتجاوز حقوقه ! وفي سباق الأحقاد التي يواجهها ديننا الصامد نرى فرنسا تمتاز بتبشير واسع الحيلة ، واستشراق خبيث القصد ، وسياسة شديدة الفتك !

في الحرب العالمية الأولى سَلَحَتْ لواء «الإسكندرونة» من سوريا، ومنحته لتركيا الحديثة مكافأة لها على علمانيتها ، وسلخت محافظتين أخريين من الجنوب ومنحتها جبل لبنان الصغير ليتكون لبنان كبير تحت سلطة اختيرت بعناية كى تمحو العروبة والإسلام ، وتجعل الكثرة الإسلامية تافهة ضائعة ...

وقد استقلت الجزائر المسلمة بعد حرب زهقت فيها أرواح مليون ونصف من البشر ، وقناطير من الأموال التي ضاعت في قتال قذر ...

ومع ذلك فإن ناسا كثيرين في فرنسا يريدون استئناف المعارك واستبقاء الإجراء ، ويمهدون لذلك نفسيا واجتماعيا ...

وقد انفجر الغضب على الإسلام وأتباعه يوم ارتدت ثلاث فتيات زيا إسلاميا محتشما ، وقال كثير من المسئولين : هذا تحدُّ للحضارة الفرنسية !

وكان غليان الرأي العام مثيرا للعجب ، يصفه رجاء جارودي قائلا : « إن ما حدث هو في رأبي لحظة جنون جماعي ! لو رأها أحد سكان المريخ لشعر بالدهشة! بل إن فيليب جونزاليس رئيس وزراء إسبانيا صرح في التلفاز بأنه

مندعش للمبحرى فى فرنسا حول مشكلة ارتداء الحجاب الإسلامى ، إذ كيف تستطيع ثلاث فتىات يرتدين هذا الحجاب أن يعرضن للخطر الهوية الثقافية الفرنسية ، والحقيقة - والكلام لجارودى فيما نطن - أن الهوية الثقافية لفرنسا تتعرض للخطر من الأفلام الأمريكية الهابطة التى تستورد من الولايات المتحدة » !

أنا شخصيا أتساءل : إن الشبه قريب جدا بين الحجاب الإسلامى وملابس الراهبات المسيحيات ، فما الذى أثار الذعر والتوجس لأن تلميذات آثرن الاحتشام والتقوى ، وارتدين مايردّ عنهن الأعين الجريئة والحائنة ؟
لاريب أن هناك حساسية بالغة ضد كل مايقترّب من الإسلام أو يقرب من معالنه وشعائره ...

ولفرنسا عدة إذاعات تشغل بالتبشير وتغزو أجواء المغرب الكبير ، وتبذل جهود الجبابة لضرب الإسلام فى مقاتله !!

والغزو الثقافى الجديد يقوم على شعبتين : إحياء النزعة البربرية كى تقاوم الإسلام وتمنع صحوته ، وكذلك إنشاء نزعة جديدة عنوانها : ثقافة البحر المتوسط ، كى تقطع الشعوب المطلة على هذا البحر من عالمها الإسلامى الرحب إلى عالم آخر تنهى روابطه بالإسلام تاريخيا واجتماعيا ، لعله فى نهاية المطاف يرتدّ على عقبيه ! وينسى رسالته وحضارته ..

ذاك مايقع فى غرب البحر المتوسط . أما فى شرقه فثم أمر آخر هو قاصمة الظهر ، وكارثة الدهر ، هو الاستعداد الحار الجارف لإقامة إسرائيل الكبرى !
وإسرائيل الكبرى غاية دينية مقررة لدى اليهود والنصارى على سواء ،

اليهود يتظنون مسيحيهم - أو مسيحيهم الدجال - كما نسميه نحن ، ليحكم بهم العالم ، ويقم دولة الشعب المختار ، والنصارى يتظنون نزول عيسى بن مريم بعد تجميع اليهود فى فلسطين ليدين المسكونة كلها ، وينصّر اليهود طوعا أو كرها ، ويحكم العالم وهو جالس على يمين الرب ..!!

ومعنى إقامة إسرائيل الكبرى ضياع ست دول عربية تقع في المجال الحيوى لإسرائيل بين الفرات والنيل : هي مصر والعراق والسعودية ، والأردن وسوريا ولبنان ، بعد التهام فلسطين كلها بداهة !

والأصوليون المسيحيون يعتقدون هذه العقيدة ، وبينهم ريجان وكارتر ، ويوش الذى أعلن سعادته ببدء الخروج الكبير ، خروج اليهود الروس وتوطينهم هناك ، إن هذا المسلك دلالة تقوى وإيمان واستجابة لأمر الله !!
ومنذ زحف اليهود إلى أرض الميعاد والإسلاميون يلحظون أن إسرائيل تحاربنا يجنود من الدول الشيوعية ، وأسلحة من الدول الرأسمالية ! ولا يزال الوضع كما كان مستودعات الرجال تفتح من روسيا وأوروبا الشرقية ، وخزائن للسلاح والمال تتدفق من الغرب الصليبي .

إن الكل اصططح علينا ، كى يقيم ملكه على أنقاضنا ...
لم ينس مؤشي ديان التاريخ الذى مضى عندما قال عشية انتصاره على عبد الناصر سنة ١٩٦٧ : لقد ثأرنا ليهود المدينة وخبير !
ولم ينس المارشال اللبني التاريخ الذى مضى عندما دخل القدس سنة ١٩١٨ فقال : الآن انتهت الحروب الصليبية ...

وقد لخص ولیم جيفور بلجراف الهدف من هذه الحروب كلها عندما قال :
عندما يجتفى القرآن ، وتمتحنى مكة من بلاد العرب - يعنى الكعبة - عندئذ يستطيع العربى أن يتدرج فى طريق الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه « !!
أى حضارة يريد ؟ حضارة الايدز والشذوذ والضغائن ...
إننى لا أخاف هؤلاء جميعا ، إننى أخاف أن يذكر الآخرون باطلهم ، ونسى نحن حقنا وتاريخنا ورسالتنا ، ونشتغل برفع مستوى المعيشة على حين يشتغل غيرنا بتغليب كفته وإعلاء ملته ...